الفكر الإسلامي فوق الفقه الإسلامي

البروفيسور عبد الستار قاسم

يطرح السؤال حول دور رجال الدين في الحياة العامة للمسلمين نفسه دائما ويلح على إجابة تبدو أنها ليست سهلة المنال. إنه شبيه بالسؤال عن دور المثقفين عامة، وشبيه في تعثر الإجابة. ليس من السهل أن يجد المرء إجابات عن كثير من الأسئلة عندما تكون الأمة في حالة جزر يعمها الفقر والجهل، وتنهش من أبدانها الأمم الأخرى. تتعثر الإجابات وتتعرقل الخطوات بسبب تدن أخلاقي يتغذى على العمل الجماعي والتعاون المتبادل، وتتيه الهوية ويتحول الناس إلى أفراد يبحث كل منهم عن مصالحه الخاصة. أما من كان همه الصالح العام فيجد نفسه متألما مع مبادئه لما يراه من ضياع للبوصلة وتشتت في السبل.

بعد أن عدد لنا الله الوصايا الرئيسة التسع في سورة الأنعام (151,152)، أجمل لنا قائلا: (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون). تنص الوصايا التسع على الفضائل العليا التي لا يمكن أن تحيا أمة إلا بها، وتشمل الإحسان للوالدين وعدم أكل مال اليتيم والوفاء بالكيل والميزان وبعهد الله، الخ. وواضح أن الابتعاد عنها يؤدي إلى الضعف ومن ثم إلى تشتت السبل والشمل وهلاك الأمة. من يرى أوضاعنا والتشتت الذي نعانيه والضعف الذي يحني الجباه لا يسعه إلا القول: صدق الله العظيم.

فماذا هو دور رجال الدين في إقامة أمة عظيمة موحدة؟

أشير أولا إلى أنه لا يوجد في الإسلام رجال دين، ولا توجد فئة أو طبقة يمكن إطلاق هذا الوصف عليها، ذلك لأن الإسلام ليس كهنوتيا أو رهبانيا وإنما دين عملي ابتدأ بكلمة إقرأ. وإذا كانت فئة من هذا القبيل قد تطورت فذلك إبان حقب ضعف المسلمين وتقلص الاهتمام العام بالعلم الديني وحصره بفئة معينة من الناس. في ظل الضعف والعجز، يلجأ الناس إلى الكهنوت والرهبنة والشعوذة والغيبيات علّ في ذلك ما ينقذهم مما هم فيه من غم وهم، وحزن وألم. إنهم يصنعون لأنفسهم آلهة اجتماعيين غير الإله الذي له يصلون ويصومون. هكذا تطور رجل الدين في الإسلام حتى أصبح مرجعية تنشلّ أمامه آراء الناس حول القضايا الدينية. ويظهر لي من خلال الأبحاث التي أقوم بها أن رجل الدين قد أصبح مرجعية فوق القرآن الكريم، وعامة الناس يأخذون بما يفتي

حتى لو كان في فتواه ما يخالف نصوص الكتاب، وواضح أن الغالبية الساحقة من الناس تتلو القرآن سريعا دون التدقيق بمضمون الآيات.

نحن لسنا بحاجة إلى رجال دين وإنما إلى علماء في الدين يفكرون ويبدعون ويقدمون الجديد، ولا يقفون فقط عند التقليد وترداد ما أتى به الأولون. إن توقفنا عند الأولين تحولنا إلى جاهلية تقتفي آثار الآباء ولا تزيغ عنها، وإن أخذنا من الأولين لننطلق نحو اللاحقين نكون قد وفينا بالنص القرآني الذي يقول: (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها). التدبر عبارة عن أمر مستمر إلى يوم الدين، وتدبر الأولين لا يعفي التابعين والقادمين، وهو بالتأكيد يشمل الإبداع ومزيد من الاستنباط والاستيعاب.

حتى يكون لنا ذلك، أرى أنه من المهم الانتباه إلى أن الدين الإسلامي ينقسم إلى أقسام رئيسية هي: قسم العقيدة الذي هو مادة الإيمان، وقسم الحق والباطل الذي هو مادة الفكر والعقل، وقسم الحلال والحرام الذي هو مادة الفقه. العقيدة هي رأس الهرم، والتمسك بمكوناتها مثل الإيمان بالله والملائكة والرسل يشكل المحور الأساسي للإيمان الذي يظهره الفرد؛ وهي ليست خاضعة للبحث العلمي لأن الله سبحانه فوق كل بحث دنيوي.

يأتي الحق والباطل في المرتبة الثانية بعد العقيدة لأنه يتعلق بخلق الله ونواميس الكون التي تنظم عمل الكون بكل مكوناته وجزئياته. إنه مادة العقل والفكر العلميين اللذين يبحثان في مختلف الأمور الطبيعية والإنسانية والاجتماعية بهدف الوقوف عند الحقيقة باكتشاف القوانين الطبيعية التي أوجدها الله سبحانه. العمل الفكري هذا هو الذي يدفع الأمة إلى الأمام وينهض بها في مختلف ميادين الحياة ذلك لأنه يكتشف الحقيقة التي تشكل الأرضية الصحيحة للانطلاق نحو البناء. إنه العقل العلمي أو مكمله الفكر هو الذي اكتشف قوة الحديد فصنع منه الأدوات، واكتشف العسل فصنع منه الدواء، واكتشف قوانين الجيوفيزياء فانطلق نحو الفضاء، والأشعة فعالج الكثير من الأمراض، والأمراض النفسية فأقام المصحات، وأضرار التدخين فأوصى بمنع اللفافات، الخ. بالعلم تتقدم الأمم اجتماعيا وماديا، وبدونه تبقى عاجزة تستجدي العون من الآخرين الذين من الممكن أن يكونوا أعداءها.

لهذا وردت في القرآن الكريم مئات الآيات المتعلقة بالتفكر والتدبر والنظر والتعقل والعلم والتعلم.

يأتي الحلال والحرام في المرتبة الثالثة، وهو يختص بجزئيات الحياة العادية للمسلم وتفاصيل الحياة اليومية. إنه مادة الفقه الذي يعتبر عقليا إلى حد ما ومعقولا لكنه ليس بالضرورة علمي.

الفقه الإسلامي خاضع للنصوص وللمكان والزمان، ومن الممكن أن تختلف الفتوى من مكان إلى آخر، أما الحق والباطل فخاضع للبحث العلمي الذي لا يكترث بالزمان والمكان. الحقيقة الفقهية قد تتغير من مجتمع إلى آخر، أما الحقيقة العلمية فثابتة لأنها محكومة بخلق الله. من الممكن، تحت ظروف معينة، أن يفتي شخص بعدم قطع يد السارق، لكن ليس من الممكن القول بأن الماء ينساب من أسفل إلى أعلى.

مشكلة المسلمين أنهم اهتموا بالفقه وتركوا الفكر. فمثلا، يجد الدارس كتبا كثيرة حول الصلاة وأحكامها وأصولها، لكنه من الصعب جدا أن يجد كتابا عن كيفية الأداء الأكاديمي السليم في الإسلام؛ ومن الممكن أن يجد مراجع لا تحصى حول لباس المرأة، لكنه من الصعب جدا أن يجد عن واجب المسلم في تطوير العلم والتقنية. اهتم المسلمون بالفقه وأكثروه جدا بالتفاصيل حتى حولوا الكثير من المسلمين إلى كهنوتيين، وغابت عنهم القضايا الفكرية والعلمية حتى باتوا خلف الأمم.

أدى الاهتمام الزائد بالفقه إلى تعدد المدارس الفقهية وتشعب الاجتهادات وتمزق الآراء حول قضايا تفصيلية قد يكون شأنها ضئيل جدا. فمثلا، من الصعب أن تعرف فيما إذا كان الصحيح هو أن تسبل يديك في الصلاة، أو أن تضعهما أعلى الصدر أو على البطن. وهذه قضية تأخذ نقاشا أكثر مما يأخذ النزول على القمر. وقد مهد هذا التشعب للتشتت في المجالات الاجتماعية والإنسانية. فمثلا، تجد رجل دين يفتي لصالح عملية الصلح أو التفاوض مع إسرائيل ويأتينا ببينات، وتجد آخر يفتي بتحريم التفاوض ويأتينا ببينات. وقد تبين لي من خلال دراساتي أن الكثير من البينات حول المواقف المتناقضة لها أصول في الخلافات السياسية بين المسلمين منذ معركتي الجمل وصفين. وتجد رجل دين يبايع مثلا، ملك السعودية، بينما يأتي آخر ليقول له أن الأئمة من قريش، بينما يظهر ثالث ليفتي بأن اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي.

الاستمرار في التركيز الفقهي لا يوحد المسلمين ولا يصنع من رجال الدين أداة وحدة وتوحد. ضمن هذا الوضع، لا يختلف رجال الدين عن الناس العاديين في مواقفهم وسلوكياتهم. تجد منهم المخلص والمنافق والكذاب والأمين والخائن والمنغلق والمنفتح والمنعزل؛ ومن الصعب أن تجد من بينهم أصحاب مواقف صلبة يصمدون عندها ولديهم الاستعداد لتقديم التضحيات دفاعا عنها. كثيرون من رجال الدين تحولوا إلى أدوات سياسية بيد السلطان واستقطبتهم الدنيا وتخلوا عن الآخرة، وكثيرون هم الذين يرون الحق ويغمضون أعينهم أو يسيرون في طريق الضلال والباطل.

للخروج من هذا المأزق الذي يمزق من يجب أن يكونوا أمناء الأمة وضميرها المتوقد، أرى التالي:

أولا: يجب العودة إلى القرآن الكريم، واتخاذ القرآن مرجعية نهائية إذا وقع خلاف حول قضية فقهية. الخلافات والاختلافات تقع بسبب اعتماد فقهاء الزمان والمكان على الكثرة الذين اجتهدوا وأفتوا وفق أزمنة وأمكنة مختلفة. يتخذ أغلب المسلمين الآن القرآن مهجورا، ويعتمدون على كتب كتبوها بأيديهم. لا شك أن كتب السنة تشكل مرجعا، وكذلك كتب السلف الصالح، لكن نصوص القرآن الكريم تبقى الحاسمة والمهيمنة.

تتيح العودة إلى القرآن الكريم للمسلم فرصة السمو فكريا من حيث أن القرآن يعالج الكليات، ولا يعرقل عملية البحث العلمي والتحصيل المعرفي ويشجع الارتقاء العلمي. فإذا وقع خلاف مثلا حول نقص عقل المرأة ودينها، فإن القرآن يقول لنا أنه يخاطب الرجل والمرأة على حد سواء. فلو كان هناك من ينقصه القدرات العقلية لتمت صياغة خطاب آخر. هنا يحل الفكر مشكلة الفقه.

ثانيا: الانشغال بالفكر والتخفيف من الانشغال بالفقه. المسلمون بحاجة إلى إعمال الفكر والتدبر في القرآن الكريم خاصة ليكونوا قادرين على الاستجابة لمتطلبات العصور، وإذا بقيت طاقاتهم منحصرة فقهيا فإنهم لن يكونوا قادرين على النهوض الذي يرتقي بهم إلى حيث وصلت الأمم المتقدمة. هنا أضرب مسألة الحرية مثلا: لو سألت فقهاء عن الحرية في الإسلام لحصلت على إجابات متعددة وذلك وفق الآية أو الحديث الذي يعتمده الفقيه. يقول لك أحدهم أن الحرية ليست موجودة لأن الله لا يقبل غير الإسلام دينا، ويقول لك آخر بأن الحرية غير موجودة لأن الأشياء تحصل بقدر من الله، بينما يفتي ثالث بوجود حرية لأن الله سبحانه قال: "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر." وهكذا. بينما لو أمعنا الفكر لوجدنا أن الحرية في الإسلام خلقية وليست تشريعية أو تاريخية، أي أنها ليست من أعمال الفقه، وذلك لأن الله قد خلق الإنسان بقدرة تمييزية تجعله قادرا على الاختيار وتلازمه مسؤولية اختياره. وهذا ما يجعل الحرية في الإسلام أكثر عمقا من الحرية في الديمقراطية. لكن كيف تُقنع رجل دين في هذا وهو يظن أن ما يعرفه هو الحقيقة المطلقة؟ أرى أن بعضهم يمكن أن يستمع، وبعضهم يمكن أن يسر في نفسه مدى كفرك، وأغلبهم سيرى فيك تجسيدا لإبليس.

الفكر الذي يدرس الحق والباطل ذو مرتبة أرقى من الفقه، وإذا حصل اختلاف حول قضية فقهية فإنه يجب ردها إلى أصولها الفكرية. الانشغال بالفقه عمل مريح لأنه لا يتطلب الكثير من البحث ولا المجهود العقلي والذهني، ويجعل من محترفه سلطانا دينيا صاحب جاه وسطوة.

ثالثا: العالم صاحب رأي ولكنه ليس متحزبا إلا إذا كان الحزب متمتعا بمرونة تتيح حرية الفكر والتعبير عنه. الأحزاب في بلادنا منغلقة ومتعصبة ويظن أصحابها أنهم يمسكون بمفاتيح الغيب. هذه أحزاب لا تصلح لعلماء ومفكرين لأنها تأسرهم وتحاصرهم وتحاصر علمهم وفكرهم. التعصب يتغذى على الفكر ويحول الناس إلى جهلة ويطمس القدرات الإبداعية ويقود إلى البغضاء والكراهية والأحقاد. فمن شاء أن يخوض معركة بناء الأمة والنهوض بها فإن عليه أن يحرر نفسه أولا من التعصب وملحقاته الاجتماعية والنفسية.

فإذا كنا نطمح إلى دور حيوي وفاعل لرجال الدين، فإنني أرى أن ذلك لن يتحقق في ظل الوضع الديني القائم حاليا. هناك حاجة ماسة لوجود علماء لا يخشون إلا الله، وتنفصل مصالحهم الدنيوية عن أعمالهم العامة. أما والحال هكذا، فإنني أخمن بقاء رجال الدين ضمن الآفاق الاجتماعية السائدة المتسمة بالتخلف والتمزق الاجتماعي وعدم الرقي في مضمار الفضيلة، والهروب إلى الماضي.